

عروسة النيل

الفصل السابع عشر

لجأ أوربون الى مخدعه بلتمس العزلة فيه وبتبني الكينة في خلوته لكن همومه لازمتها فتنازعت عوامل الاضطراب ونقاذه القلق والجزع وتمثل الشقاء لعينيه وامتلأ قلبه بأساً وكان لعنة ايده حلت عليه فلا تنزح عنه وسدى وحاول النوم فلم تغمض عيناه وكيف تغمض عينا من غادره القدر فريسة اللهم والنعم غيب الحبيب ولعنة الوالد وفرط الحزن وارتكاب الاثم . فآخذ عيشي في غرفته ذهاباً واياباً ثم خلع رداءه واستلقى على سريره وهو يتنهد من اعماق فؤاده تنهد الحزين العيس وانار القمر الغرفة فستر عينيه لئلا تقع على ما يكره رؤيته فيزيد عذابه واشتد به اليأس فحدثته نفسه ان يتناول سيفاً ماضياً ويقتل نفسه فيسترخ من تعاسته ثم افتتح الباب فرأى شبحاً ايض يدنونه فجمد الدم في عروقه لكنه لم يلبث ان استعرف القادم فاذا هو ماري ابنة اخيه فصاح بها متناظلاً

— ماذا تطلبين فانفضت الفتاة وجمدت في مكانها ثم مدت ذراعيها كالمستغيث وقالت
— سمعتك نأوه وعلت اني علة شقائك فلم استطع النوم فاتيت
— فعودي الآن الى غرفتك ونامي فلن نسمي صوتي بعد . اما هي فهزت رأسها وقالت

وهي تبكي

— لا اعود حتى تغفر لي ثم اسرعت اليه وطوقت عنقه بذراعيها وقبلت خديه وجبينه فاحس بشعور غريب وكان نفوره زال باسره فدمعت عيناه وذهل عن حزنه وشقائه وظلاً كذلك بضع دقائق ثم امسك يدها وقال

— ولكنك محومة يا ماري والبرد يؤذيك . ثم لفها بردائه والمعبرات تجري على خديه وقال سكتي روعك الآن وعودي الى مخدبك اما انا فسا تجلد واتالك نفسي ولست اجهل انك لم تبغي اذبتي فيما فعلت ولست بناقم منك .

— لا استطع النوم يا عمه حتى ابوح لك بجميع ما في نفسي . فاعلم اني فعلت ما فعلت لا لتقص الايقاع بك ولكن انقاذاً لثابولين وانت ادرى مني بحب جدي لها وبما كان لها من المنزلة الرفيعة في عينيه فشق علي ان يموت وهو يحسها سارقة كاذبة وخيل لي ان السكوت في مثل تلك الساعة جريمة لا تغتبر ويشهد علي بمخلفي ان غابتي الوحيدة كانت تبرئها ولو سكتت مثل

— احسنت في ما فعلت فعمك غرتي فلا يخاف من البلبل وأما باولين فملاك ظاهر فقد
ظهر حقها وانصحت براءتها ولا كان حي لها يفرق الوصف فقد صالحتك عن طيبة نفس
وساحبك اضعاف حي قبل فاننا في حاجة الى الاحباء والا بات حياتي عبثاً ثيبلاً علي فقد
كلنتي حماقتي خسارة اعز الناس الي فانهي ما قلت وقبيلني وعودي فارقدي . فقالت ماري
— اتحب باولين هذا الحب المنروط وكاترينا

— تجاوزي عنهما واستندي من امري حكمة فقد ارتكبت في ساعة طيش اثماً واردت
اخفاءه فارتكبت اثماً آخر وآخر حتى صارت هذه الآثام جلاً انقلب علي فسحقني وصرت
اتعس الناس بعد ان كنت من اسعدهم وتمكر صفاه عيشي وخسرت باولين ولو اقرنت بها يا ماري
نكان عمك الآن اسعد خلق الله ولكن لا سبيل الى ردة ما فات فاذهبي الآن وبني كبرت
يسهل عليك ادراك هذه الامور

— لقد ادركتها تماماً فاذا كنت تحب باولين كما تقول فعلام لا تقبل اليك وانت جميل
محبوب وفي طاعتك ان تقوم باعمال عظيمة فباولين تحبك اذا . . . اتغضب اذا قلت
— قولي

— لودرت باولين بما تقاسيه من الشقاء وايقت انك طيب السريرة لم ترتكب الاثم سوى
مرة واحدة لغرت لك ذنبك ويلوح لي انا الطفلة الجاهلة ان مثلك مع جدي مثل الابن الشاطر
المدكور في الانجيل فقد اقرتتا على غيظ
— ولكنه لعني

— كلاً فاننا احفظ جميع ما قاله فقد اشار الى فعلتك السيئة وناه بتلك الكلمات الخفيفة
وامرك بالانصراف من وجهي

— وما الفرق بين المعين والمطرود
— بينهما فرق كبير فقد احاب في غيظه واسفه لكن الابن الشاطر صار اعز ابني ايدي
اليو فذبح له العجل السمين وغفر له وسيغفر لك جدي في السماء وتغفر لك باولين فاننا اعرف
الناس بها وسترى صحة قولي نعم ان كاترينا تحبك ولكنها طفلة مثلي فاذا كتبتا يرفق واعطيتها
هدية سنية تعزت نعم انها تسحق العقاب على شهادة الزور ولكن قصاصها اخف من قصاصك
على كل حال

نوقمت كلمات تلك الفتاة الطاهرة في قلب عمها وقوع الندى على العشب اليابس فالتعشة
وردت اليو بعض الحياة والعزم ولما انفصلت عنه اخذ يردد اقوالها لنفسه ويعجب بها

الفصل الثامن عشر

كان تحنيط الجثث وحرقها محظورين على اهل ذلك الزمان بامر الملوك ورجال الدين وكان على اهل الميت ان يسرعوا في دفنه الا الشرفاء والاعيان فان جثثهم تطيب وتعرض في احدى الكنائس التي بناها الميت او اتفق عليها من ماله وكان المقوقس قد اوصى بدفن جثته في كنيسة ماري يوحنا في الاسكندرية مدفون ايده لكن حمام الزاجل الذي نقل خبر وفاته الى البطريك عاد ينقل امره الى المطران بدفن المتوفى في مدفن أسرته في منف لاسباب يصعب معها العمل يومئذ

وبعد وفاته يومين احتفلت المدينة بدفنه وكان موكب الجنائز مهيباً مشياً فيه اهل منف ووفود البلاد كان على رؤوسهم الطير وجاء عمرو بن العاص واعوانه من القسطنطينية والحنطة دلالة على ما كان للفقيد من المنزلة في عيونهم ولما عبروا البحر ساروا ببطء تحف بهم الهيبة والوقار فاتجهت اليهم الانظار وكان ملائمتهم وخودهم ودروعهم وجيادهم اعظم اثر في الموكب ولما فرغوا من الجنائز استخفوا جيادهم وعادوا من حيث اتوا كأنهم السهام اطلقها الرامي وحجبهم الضباب عن ابصار الجمهور فلم يسمع سوى فرقة حوافر خيولهم وكلمهم امرأه في مجدهم ومنعتهم لا تستطيع اعظم الممالك على ردة غاراتهم

ووقف اوريون الى جانب عمرو فطوقتهما الجماعة ورمقتهما الابصار بحجة بها هذا بطول قامته وهيبته وسكينته وذلك بجماله وشبابه وحسنه وكان عمرو محققاً الى ما امامه لا يلتفت يسرة ولا يمتد كأنه طود من الرواسي اما اوريون فكان ينظر الى من في الموكب حتى اذا ما وقع نظره على باولين انتشع بعض الهم عن جبينه لكن سمات النياط لم تمنح ولم تخف علة غيظه على عمرو واهل منف بعد ان رأوا ما رأوا من عدم اكترت رجال الدين لوفاة ايده رعيدهم وقلة من شهد الجنائز منهم اذ لم يمش امام مركبة الميت سوى المطران وكاهن واحد ونفر من المرتين

ولما بلغوا المدفن انزلوا الجثة وفاه المطران بتأبين وجيز وعقبه المرتعون لجاه ترتيبهم ضعيفاً خافتاً لكنهم لم يكادوا يفرغون حتى ارتفعت اصوات ذلك الحشد الغفير واشتد كرا في ترتيب ترتيب الجنائز حتى دوى السهل باسرات الالوف ولم تسمع مدافن منف في الدهر الغابر رثاء كالذي رثى به المصريون المقوقس ولم يخف على عين عمرو النقادة تقصير رجال الدين فقال بصوت جهوري - اراهم يطالبون ان يكفروا الميت عما فعله الحي بالاتفاق معنا حياً بمصلحة بلاده وخبرها. فاجاب اوريون

— ذلك امر البطيرك ولكن ورحمة ابي ان يوماً يقفل فيه بنيامين ابواب السماء سيف وجه افضل الخلق ليكون يوم شؤم عليه . فقال عمرو
— اما نحن ففناج الخنة في قبضات سيوفنا بجثني يوم السبت في كلام معك وتعال نحو غروب الشمس فاذا لم تجدني فانتظري ريثا اعرد ولما قال ذلك وضع يده على عنق جواده فتقدم اوريون يريد اسعافه فسبقه عمرو وامطى صهوة الجراد كأنه نقي ثم اشار الى اتباعه بالانصراف

وكانت باولين واقفة مع السيدة نفورس في باب المدفن وها بحيث تسمعان ما دار بين الرجلين فقرأت في وجه اوريون ما راعيا وكان وفاة ابيه وما تلاها من الحوادث بدلته تبديلاً فلما فرغوا امسكت يد نفورس وسارت بها الى المركبة وصادت ومرضعا الى البيت وكانت اثناء الطريق تفكر في جميع ما رأت وسمعت ولم تفارقها صورة اوريون وقد وقف امام المدفن ورفع ذراعاً الى السماء واحبب يده واقسم قسمه وعلمت انه رآها ولم تحس ما اورثتها تلك النظرة من خفقان القلب فحارت في امرها ولم تهتد الى الخطة التي تجري عليها في المستقبل فكانت تارة تفر على الابتعاد عنه وظوراً تحن اليه وترثو لخاله قترى من الواجب عليها ان تأخذ يده وتدلّه على السبيل الذي يجب عليه سلوكه وظلمت كذلك وهي لاهية عن حديث المرضع حتى وصلت الى البيت فشاقتها سكينة وشعرت بالراحة منذ وطأت عتبة فرأت ان سعادتيا لا تتم فيه ما لم تقطع يدها جميع ما يربطها باوريون واهل بيته فعزمت ان تنقطع عن التفكير به وان تطرح عنها ما دار في نفسها من الميل اليه او عنه

وكان البيت الذي اخارته جامعا لاسباب الراحة وهناء العيش والسكينة تلك السكينة التي طالما اشتتها ايام اقامتها في بيت خالها وزادها تعلقاً به قرينة من دير الراهبات وكون رئيسة الدير صديقة لوالديها عرفتهما في القسطنطينية وحافظت على ولائهما طول حياتها فلما لقيت ابنتها في منف عنيت بامرها كأنها ابنتها

وكان اهل البيت آية في اللطف وكرم الاخلاق فانفروا عليها الرعاية والاحكام وكان روفياس شيخاً وقوراً كلل الشيب هامة لكن تلج الشيب لم يبلغ صدره ولا يرّد عواطفه فظلّ طروباً رقيقاً ناعساً كرم الفؤاد ودبعا كالطفل جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم وهو على ايساره يحب للعمل يكره البطالة وزوجته نجيلة القوام صفراء الوجنتين على وجهها مسحة من جمال شبابها محبة لزوجها فائمة على خدمته تستسهل الدمع في سبيل مرضاته وتنفق قواها في استكمال معدّات راحته حتى قال الطبيب انها نجت عن قشة في طريقه قترنهما من مكانها لئلا تعوق سيره

ورزقا ابنة وحيدة اسمها هيلانة مليحة الشكل حياها القوام بعينين زرقاوين وشعر طويل ذهبي فهداه اذ رأت انها تبذل جيدها في خدمة ابيها وان لا عمل لها في البيت حسبت وجودها فيه مما لا فائدة منه فعزمت على التخلي عن العالم والترهب في الدير المجاور هذا على شدة حباها لابويها واستعدادها لبذل حياتها في مرضاتهما اما ابوها فاعترضها في ذلك بقوله ان اجله قريب فلا بد من رفيقة لزوجه وتمهدها بالعبادة والحب بعد وفاته فلما جاءت باولين الى بيتهم تعلقت بها نفس هيلانة ورأت فيها مثالا للكمال والجمال واللطف فصارت تفضي معظم وقتها في عشرتها والباقي في مساعدتها على العناية بالبحريجين اي رسمهم والفتاة مانداني فان الطيب ارتأى نقلها من بيت القوقس بعد وفاته لضمومة ترضيها فيه تغاطب روفينس بشانها وفاوضه في تقدير الاجرة ونحوها فاجاب الآخر

— اهلاً وسهلاً بهما واذا رغبت باولين في البقاء معنا فلتبقى على الرحب والسعة على شرط ان تنفصل ساعة تريد ذلك او تزيد اذ قد يحدث ان يعسر الاتفاق بين مثاها وامثالنا لتفاوت اقدارنا اما مسألة الاجور فتقول تعيينها ولا تبخل فاذا صدق ظني فالسيدة باولين تفضل ان تقوم بدفع نفقاتها على ان يمن عليها امثالنا بها وهي على ما تعرف من عزة النفس ومتى ادعى المرء نصيبه من نفقات البيت احسن انه واحد من اهله
فسر الطيب لكلامه ونقله الى باولين فارتاحت اليه ولم يطل بها المقام حتى تحققت صحة قول الشيخ

الفصل التاسع عشر

وبعد ان تناولت باولين طعام العشاء في مساء يوم الجنائزة نهضت تريد البستان فرافقها روفينس وهيلانة اليه وكات الشمس قد اوشكت ان تغيب وهي ترشق اشعثها على الازهار والاوراق فتزيدها رواء وبهاء فجلسوا الى جانب ساقية (ناعورة) يديرها ثور وحمار فينصب ماؤها في صهريج ويجري منه في جداول متفرقة في اشحاء البستان وفاح اريج الازهار فضرع الهواء واستوت الكينة فلم يعد يسمع سوى ترنيم الراهبات في الدير فدارت هيلانة الى مصدر الصوت واصغت اليه فاشار ابوها الى باولين وقال

— هناك كنزها وقلبها ولعلها خير الامور لها ولكن الله لا يشاء ان يتخلى الولد عن والديه — صدقت ولا شيء يمتنعني عن الترهيب سوى املي بلقيا الي فان نفسي تتوق الى سكنية الدير كما تتوق نفس هيلانة اليها وقد كنت قبل زولي في بيتكم تعية خربة فلما اتيتكم خفت بعض ما بي من الهم وسالني هنا ما طلبته هناك واشارت الى بيت الوالي ثم قالت تأمل ابنتك

فهي في موقعا مثال الطهارة تبيح منه التقوى والفضيلة ولولا خشيتي ان ازعمجا لشاركتها في صلواتها قالت هذا وسارت الى طرف البستان الآخر وتبعها روفيس حتى بلغا السياج فانصت شيئا ثم قال

— اراه يحاولون نزع السياج ايضا فقد فاجأت امس احد العميد متلبا بالثعل فخالق الاشواك دون قبضي عليه وأرى اليوم غيره فانظري ريتا اذهب ناتي بسوطي ولما غاب عن بصرها سمعت من يتاديا باسمها فالتفتت الى السياج وابصرت وجه فتاة مطلا بين الاغصان المشتبكة فعرفت ان القادمة كانتينا فقالت هذه اتاذنين لي في الدخول في شي؟ اقوله لك فاومات باولين بالايجاب فانسلت كانتينا اليها واسرعت لتحييا ثم جردت مكانها وارخت يديها فدفنت منها باولين وقيلتها وقالت — علام لا تدخلين من الباب فهذا روفيس تائد بسوطي ثم ادارت الى الشيخ وقالت قف فان المتندي يطلبني ولا يبيحك ولعلك تعرف هذه الفتاة فهي جارتك — اعرفيني يا فتاة

— نعم فقد رايتك مئة مرة

— ولكنك تجاهلتي فخرت سياحي ولم تشاي الدخول من الباب كما يفعل المعارف

فسألها باولين

— افلا تعرفين هيلانة

— طالما وددت مكالمتها ولكن امي فقال روفيس

— وهل ترى امك ذينا عيبا فحفظتنيك مكالمتها

— لاسمح الله ولكن لكل امرء شأن ففي لانكاد تعرفك اذ يندران تراك في الكنيسة

— فحبت اتنا من الطفاة الفجرة فقول لي ما انها اثمت في ظننا فاذا كنت من صديقات

باولين وتريدين زيارتها فتعالي من الباب لا من السياج وسترين اتنا قوم لنا ما يلينا عن الشر

من العطف على العجاوات والبشرذوي المعاهات وخبر خدمة يخدم بها المرء باريدسعيذ في تحفيف

مصائب مثلوقائنا فقول لي هذا لامك وتعالي ما شئت ثم ضحك وانصرف في طريقه فقالت كانتينا

— لقد عرفت هذا الشيخ واهل بيته واعلم كيف يقضون اوقاتهم وطالما رايتهم من برج

بيتنا لكن لا تعرفين طبع امي فاذا ابغضت احدا فلا سبيل الى ازاله كرهها وليت هيلانة صديقتي

— اذا لكات صداقتها من خير الامور لك وقد حان لك ان تعاشري من هم اكبر من

ماري فقالت كانتينا

— يربك لا تقول فينا سوءاً فهي متفردة في الاستقامة والفهم على صغر سنها ثم تنهدت
وبكت بكاءً مرّاً واجبشت في العويل حتى لم تستطع النطق فاسكتها باولين وسارت بها الى
جميزة فاجلستها الى جانبها وطوقتها بذراعها وهي تल्प حزنها بكلامها العذب وظلت كذلك نحواً
من الزمن نشرت فيد الظلمة جناحها على الارض فرأت باولين ان تعود الى البيت لكنهما لم تثنأ ان
تغفل عن تلك العيسة وتوسلت كاترينا اليها ان تبنى معها وتصفي الى كلامها فاضطرت الى البقاء
واندفعت كاترينا لتحديثها بما جرى لما فاجبرتها عمماً كان اوربون يديه من الميل اليها وعن تحويله عن
حباها ثم اسهت في وصف تعلقها به وشدة غريبتها من باولين تلك الغيرة التي اعمت بصيرتها
فشهدت شهادة زور حتى نيهتها ماري الى انما فتحت عينها ورأت الهاوية فاعرة فاها امانيا الى
ان قالت ولما مات المقوقس ذهبت امي الى بيتهم فراققتها وطلبت ماري فقيل لي انها مريضة
تخرجت الى القاعة الشمس النسيم البارد فسمعت امي تصخب وتصيح ورأت من الحكمة ان ابعد
عن مكانها فسرت الى الجزء المشرف على النيل وهناك عثرت باوربون وقد لبس السواد والتي
رأسه بين يديه فلم يحس بقدومي وكان على شدة الحر يرتجف كمن اخذته البرداه فوثيت لحالده
ودنوت منه اعز به فهب واقفاً كمن لسمته اني فرأيت على وجهه صفة الموت وفي ملاحة امارات
اليأس والجزع الشديدين فارتمت وانفقد لساني ثم انتفض ودنا مني فوضع يديه على كتفي
وحدق بي طويلاً فاذا عيناه حمران كالدم وبعد هنيهة تنهد من اعماق فؤاده وقال

— لقد اسأت اليك يا كاترينا فحملتك على الاشتراك معي في جرتي مستيناً عليك
بسلامة قلبك وحسن نيتك علي ان حمل الائم الذي ارتكبناه سقط على عاتقي فكان الجزاء
منه ضعف الجريمة قال هذا وغطى وجهه يديه وعاد فجلس مكانه ثم وقف صاح قائلاً اغفري
لي اذا استطعت ذلك فدنوت منه اريد تسكين بعض ما به فدفعني عنه بلطفه وقال لقد
حان لنا ان نفضح خطبتنا قلت احبك كما تستحقين ولكني احب فتاة اخرى حباً شديداً وهي
اول من احببت واخر من احب ولقد اتيت امرأاً فظيماً ولكني افضل احتمال غيظك والالام
المبرحة على المناورة علي خطبتنا فاخذعك واخذع نفسي ثم قبل جيني كأنه ابي وانصرف
الى البستان

وحينئذ طلعت امي ووجهها احمر كالدم فاسكت يدي وجرتني الى المركبة وهي تقول
يا اللوفاة واخذية فمن لي بما يخفف وطأة مصيبتك يا وحيدتي فقد ضحكك على مذايح مطامهم
فاجبتها لقد علمت يا امأه بالامر ولن يصعب علي احتمال وفي الغد اتانا نيلس خازن بيتهم
وفي يده حق من الذهب الابريز المرصع بالفيروز واللاكي كان المقوقس قد اوصى به لي فابت

امي اخذه وطلبت اليه ان يميده الى السيدة نفوس وقد سمعتها تقول ان في نيتها مغادرة منف فتقضي بقية عمرها في التسطنطينية او غيرها من مدن الروم وهكذا خسرت صداقة ماري وعشقتها فتصوري تعاسي وشقائي فاذا لم تاخذي يدي بقيت وحيدة في منف لا صديق لي ولا انيس فلا تخطي عني

-- ساعطف عليك فصادق في هيلانة

— حذا الصداقة صدانتها لو تأذن فيها امي . ثم اخذت تشكوا امرها وما لاقته من امها واوربون وظلّت الثنتان كذلك حتى احسّت باولين بالبرد ورأت التمر قد تكبد السماء فقالت هيا يينا فقد كاد الليل ينتصف فيبت كاترينا مذعورة وودعتها قائلة ساعود من حيث اتيت وستؤتيني امي على خروجي

— لن تذهبي من السياج وسأتي بروفينس فراقفك الى بيتك ونطلع امك على علة تأخرتك
— بربك لا تغعلي فهي لا تطيقك ولا تطيقهم وقد حظرت علي زيارتك . قالت ذلك وعادت الى السياج فاخرقتها

وعادت باولين الى غرفتها وهي تفكر في حديث كاترينا وكلام اوربون فعن رؤيته ثم تشبهي فتفر من ذلك وترى من النمل ان تستند الى اليد التي لطمتها وبينما هي كذلك ران الكرى على اجفانها فنامت ونحو الصبح رأت اوربون في رؤيا رأت يدنو منها راكباً على جواد ادم كالليل وقد ارتدى ثياب الحداد وبدا التحول والاصفرار في وجهه فارادت الفرار منه فلم تستطع حراكاً وحينئذ مد يده وانتشالها ثم اردفها وراهه وتقدم بجواده يريد النهر فاجتاز الضفة وفاض في الماء فاخذت لترسل اليه ان يعود وهو لا يجيب ثم اخذ الماء يعلوها فطوت عنقه بذراعها ولحال تبدلت صفرته بالاحمرار هذا والماء يعلو حتى غمرها الى اكتافها وما ساكتان فخطر لها ان تسأله عما اذا كانت هي " الفتاة الاخرى " التي اشار اليها في حديثه مع كاترينا ولكن الامواج دهمتها وعصفت الريح وهوى الجواد الى الاعماق وسمعت اوربون يقول " انها انت " ثم فصلتها الامواج فشرعت تغرق ومدت يديها تطلبه وحينئذ افاقف وجيئتها بتفصد عرقاً فاذا بالمرضع واقفة بجانب سريرها فقالت لها

— ماذا دهالك الليلة فقد سمعتك الساعة تدعين اوربون دعوة الخائف ثم عدت فدعوتيه

دعوة للحب المشوق

الفصل العشرون

ونحو الظهيرة دخلت باولين وهيلانة غرفتي الجريمين لتغيير الضمادات كالعادة وكانت باولين

ذاهلة عما حولها تفكر في حلها وتحسب له الف حساب وعلمت ان اوريون سيأتي لزيارتها فمزمت عزماً أكيداً على رفض مقابلته وامرت مرضعها بان تنوب عنها ونحو الساعة الثالثة بعد الظهر اشتد بها القلق فاخذت تطوف في انحاء البيت فسمعت وقع حوافر فاطمت من احدى النوافذ لترى من القادم فابصرت فارساً يعدو بجواده فحبتة من اصدقاء روفينس لكنه لم يلبث ان ترجل حتى عرفته انه كاتب اوريون فاستشاطت غيظاً عظيماً منها بانها ارسله بهاها وعدت ذلك اهانة لها ثم جاء روفينس ويده كتاب فقال لم يات اوريون بل ارسل هذا الكتاب اليك والرسول ينتظر الرد فاخذت الكتاب واسرعت الى غرفتها وفضته فاذا فيه ما نصه

” من اوريون بن جريج المقوقس الى نسيته ابنة توما الدمشقي سلام
 ” كتابي هذا اليك حاولت كتابته غير مرة فاحققت وفيه اطلب لعمه واقترح اقتراحاً فاستخلفك باسم الرجل الذي احبك كابنة وتناك عروساً لابنه ان تقر اي ما يكتبه انص الناس اليك فتبييني النعمة التي اطلبها باسم ابي

” ولست اخاطبك خطاب محبٍ لحييتك خطاب رجل لا يهوى سوى امرأة واحدة على الارض اذلها واخاسمها كما يخاسم الد اعدائه فاني ساحبك ما دام في صدري عرق ينض ولسن بناس اني خسرت ثقتك وحسن ظنك لي واعلم يقيناً اني عدمت الفرح والسرور وساعدها الى الابد الا اذا قبض الله لي بالنجاة فاتم احدى معجزاته في قلبك فقد استبدل ابي البركة باللعنة فلن ابنه الذي تجس مجلس القضاء فاخذ بشارك وبدد شمل الفرح من قلبي“

ولما انتهت باولين الى هذه العبارة امتنعت وادركت مغزى كلام كاترينا وفهمت علة تعاسيه وحزنيه وعجبت ظالمها كيف يلعن ابنه على حبه وحنونه وعطفه وودت لرثف على تفصيل الامر ثم عاودت القراءة

” وقد اتيت اليك الآن كما انا رجل كبير القلب بمنعة صفرته عن الاستسلام لليأس وتنهض به همة التي ورثها عن اجداده الى طلب المجد تشبهاً بهم فاتوسل اليك ان تاذني لي بقلبك مرة واحدة فاذا فعلت فتني اني لا افوه بلفظة تشك عما في قلبي من الوجد النسبي بكاد يقتلني

” اما امالك فمن الواجب اعادتها اليك مع رجحها الذي اثمرته بعناية ابي ولا يخفى عليك ان العناية بالاموال في هذه الايام محنوفة بالمصاعب لان البلاد في قلق مستمر فلا يحسن ان تدفني هذه الاموال كما يفعل بعض القوم كما انه لا يحسن ان تباعى بها عقارات لان مقامك في مصر غير مضمون وقد تحتاجين الى هذه الاموال في ساعة يستحيل الحصول عليها بالسرعة

المطلوبة ولا اشير عليك بوضعها في مصارف الاسكندرية فقد ضاعت الثقة المالية بها وهي تفلس الواحد بعد الآخر ولما كانت هذه الاعمال خارجة عن شؤون النساء فانا اقترح ان يوكل النظر فيها الى لجنة مؤلفة من نيبس وروينس ونبلس حازنا الذي تعرفين امانته وان تجتمع هذه اللجنة غداً في بيت روفينس ولك ان تشهدي الاجتماع بنفسك اذا شئت فاذا اتفقنا على خطة فالتمس ان تملي علي بمقابلتك بضع دقائق اعيد فيها اليك شيئاً له عندك قدر عظيم ثم تخميني غفرانك فاني في حاجة اليه فاذا قرأت هذا انكتب فجودي بلفظة "نعم" ينقلها كاتبني الي فاتيك في الساعة الثانية بعد الظهر والا فنبلس يحمل اليك اليوم مالك ويحفظك الله ويلهمك الرحمة والعفو

وكانت باولين اثناء قراءتها تنقبض نفسها مرة فعمد الى تمزيق الرسالة ثم تحجم وتستطرد القراءة فلما فرغت من تلاوتها شرعت تفكر في رقة التعبير واهتمام اوريون بها فوقت امام النافذة برهة ثم دعت هيلانة واوصتها بالعناية بالجرميين فلحظت هذه اضطرابها وصنرتها فسألتيها عن الخبر فقبلتها باولين وتحولت الى غرفتها حيث اعادت قراءة الرسالة قرأت في تضاعيف سطورها ينات حب الصادق وتوتير الخالصة فتمركت عواظها وركت له وشمرت كأن في قلبها دافعاً يدفعها اليه ولكنها ابت ان تدعو ذلك الشعور حباً فقالت في نفسها هذا تأويل حتى الليلة فلن ياخذني الفارس معه الى النهر فنفرق معاً ولكني سأرفعه الى قمة الجبل وادله على اشرف خطة في الحياة فينبعها ثم عمدت الى صندوقها ففتحتها وتناولت ادوات الكتابة وجلست تريد ان تكتب اليه لكن عواظها تعبت عليها فجمدت قريحتها فنزلت الى الدار حيث كان انكاتب نائماً فابقظته وكننته ان يقول لسيده "نعم" ثم خطر ببالها انها لم تطع روفينس والطبيب على اقتراح اوريون فعادت ادراجها اليهما واخبرتهما فاجابا بالايجاب

الفصل الحادي والعشرون

وفي العشية جلس روفينس واهل بيته وفيلس وباولين في البستان يتشقون الهواء الرطب ويقضون السهرة بالاحاديث والنكات وكان البدر يعطر نوره على الاشياح فيكسوها حلة من الفضة والنسيم البليل يهب من الشمال فيزيد الليل بهجة والصدور انشراحاً فاقترح روفينس ان يظلوا ساهرين فيرقبوا خسوف القمر تلك الليلة فارتاح الجميع الى اقتراحه واخذ الرجلان يبحثان في الخسوف وكلاهما يأسف على ما تعلمه الكنيسة من استرسالها الى متابعة العامة في تصديق الخرافات حتى باتت تحجب ائنان هذه الظواهر مما يشاءم به فعمد رجالها الى اتخاذ الحفلات والمواكب ورفع التضارعات الى الله ليدراً شرها عن البلاد فقال روفينس

— ان تفسير الحوادث الطبيعية التي تحدث طبقاً لنواميس ازلية والتي يمكن تعيين زمان وقوعها بالضبط قبل حلوله واتخاذها دليلاً على غضب الله من باب التجديف كما غاب عقاب الانسان وثوابه مرتبطان بسير الشمس والشمس فقد نبي الي ان المطران والكهنة سيديرون في طليعة المركب مرتين مبتلين فعملوا الشعب بتعلمهم هذا على الايقان بان حادثة طبيعية بسيطة لها معنى خارج عنها . فقال الطبيب

— واذا ازداد المذنب الذي اكتشفه مرتين وضوحاً وجلاءً وانتشردنبه في الفضاء فهناك الطامة الكبرى والمصيبة العظمى تتهلحلق عليهم وتخرج انذمتهم فقد رأيتهم اليوم كالجناين فقالت هيلانة — لكن المذنب نذير الحرب والقحط والجوع والوباء وقالت باولين — وهذا ما كنت اعتقده فاجاب الطبيب

— وهو خطأ وعندنا الف دليل على نسادو ومن الاثم حمل العامة على الاعتقاد بهذه الخزعبلات ولا يخفى عليك ان اضطراب الافكار واختناض النيل من اعظم الاسباب العاملة في تقي الاوبئة وسترى ياروفينس صحة قولي يوم نعد مرضانا بالمئات فاجاب الشيخ — انا رهين اشارتك

ودار الحديث على الامراض والابوة وشدة اعتناء روفينس بذوي العاهات ثم نهض فليس ليأثم وانصرف الى احد مرضاه وبقي روفينس يتحدث بما اتفق له من النكات والطرف والتوادد في استفاره ثم اشار الى ميله الاصيل الى علم الجراحة فاخبر باولين عما اتفق من الوقت في الدرس والبحث فيما كان يشتغل في علم البيان الى ان قال وترك لي عمي ثروة طائلة امنت معها جانب الفقر فتخلت عن صناعتي وعمدت الى التطبيب ثم رافقت جنود الروم الى حرب الفرس كجراح فانكسر حتى وقاسيت ما يقاسيد الجرحى من الآلام التي لا تطاق فزاد عزي ثباتاً على تخفيف مصائب اخواني واسماف ذوي العاهات بعرفتي واموالي ولما بدا لي قصوري في الصناعة دخلت المدرسة حيث عرفت فليس وهو بعد فتى وأنا رجل وهناك ابتدأت صداقتنا وهو الذي رعني في سكنى منف . ثم اظن في مدح الطبيب وابدى شدة اعجابي بذكائه وهمة وقال انه على صغر سنه يفوق الشيخ حكمة وتعقلاً

ولما فرغ من حديثه قبضت باولين على يده وقالت لو كنت رجلاً لشاركتك في اعمالك ومع ذلك فقد سمعت فليس يقول ان في طاقة المرأة الاهتمام بمثل هذه الاعمال وقد لقيت في بينكم سعادة لم اكن لاحلم بها منذ شهرين فلكن زوجتك لي امأ وكُن انت لي بقام ابي فتهلل الشيخ فرحاً وقال

— على الرحب والسعة فانت انتنا فكوفي اختاً ليلانة وعلينا ان لتتدي بك ثم قال
 — ارفض ابصاركن الى العلاء فقد ابتداء اخسوف وهوذا "ست" بصورة اللب يتلع
 عين حورس بحسب زعم المصريين القدماء ألا ترين الظل يحجب سطح القمر فقد كان القدماء
 عند ابتداء الخسوف يقرعون الطبول وينفخون في الزمور ويصيحون ويصرخون لعلهم يطردون
 الخبيث الذي يتلع القمر وكان آخر ما جرى من هذا التليل في مصر منذ اربع مئة سنة لكن
 المسيحيين اليوم يحطون منزلتهم فيمتثلون بعبدة الاصنام ولست اذكر بلاداً نصرانية دخلتها الا
 رأيتهم يفعلون ما يفعله اصحابنا اليوم نعم ان ديننا نقض اديان الاقدمين لكن خرافاتهم علت
 بنا فاندرست في حفلاتنا. هلم انظرن الموكب فهم يعملون كأن اللب يتلع القمر فعلاً او كأن
 العالم سينقضي في قلوبهم مرض والذين يلبسونهم لباس الخوف هم في ضلال مبين
 (سأتي البقية)

الصحيح من الفراسة

الكبرياء

ان الاخلاق القديمة المفروسة في طبع الانسان اي التي مارسها اسلافه منذ الوان من
 السنين كالحب والبغض واللذة والالم والتكبر والتواضع اظهر فيهم من الاخلاق الحديثة التي
 تخلق بها منذ قرون قليلة كالتدين والتشكيك والكرم والنجل ولذلك ترمى ملائع الاخلاق
 الاولى واخصة في التوجه ولما الاخلاق الثانية كالكرم والنجل فلا يظهر لها ملائع خاصة بها
 والكبرياء من الاخلاق القديمة ومن اكثرها ظهوراً تجدها في الطفل والشبيخ والتمتد
 والمتوحش وملاحبها واضحة لا تخفى على احد ولا تلتبس بغيرها ولذلك فمن اسهل الامور تقليد
 المتكبر المتجرف وتمثيل صورته في الحجر والقرطاس
 والقدماء من اهل الفراسة استدلوا على الكبرياء كما استدلوا على غيرها من الاخلاق بشكل
 الاعضاء كاستلاء العينين وارتفاع الحاجبين واتساع القدمين وحمرة الوجنتين . لكنهم لم
 يقتصروا على ذلك بل اعتدوا ايضاً بالحركات التي عليها المعول الاكبر في الفراسة الصحيحة لان
 حركات المتكبر لا تخفى على احد ولا يسهل عليه اخفاؤها . وهي على ثلاثة انواع امارات الكبرياء
 مع الرضى وامارات الكبرياء مع القهر وامارات الكبرياء مع الرياء وهذه الاخيرة هي الامارات
 التي دسها التربية فلم تعد خشونتها ظاهرة . ومن النوع الاول ما يأتي